

مظاهر العبرية في الحضارة الإسلامية

للأستاذ خليل جمعة الطوال

- ٢ -

عند ما فتح العرب جنوب أوروبا واستولوا على جزرها المشهورة وطى ربوع الأندلس، انتشرت لغتهم في جميع هذه الأقطار، وخاصة في شبه جزيرة أسبانيا ومنورقة، وميورقة وجزائر الباليار وصقلية، وإقريطش وما إليها.

وبلغ من شأن العربية في أسبانيا أن اضطر آباء الكنيسة إلى نقل صلواتهم وأدعيتهم إليها ليحسن فهمها الصالون الذين كانوا قد زهدوا في اللغة اللاتينية ومالوا عنها إلى اللغة العامة وهي العربية، بتدارسون بيانها وقواعدها، ويحفظون أشعارها وطرائقها، وظلت العربية هي اللغة الرسمية في تلك الربوع حتى جلاء العرب عنها عام ١٠١٦ هـ. وقد وجد المنقبون نحو أني صك كتبها سكان تلك البلاد الأصليين باللغة العربية^(١) وفي مكتبة الأسكوريال في أسبانيا حتى يومنا هذا معاجم يونانية عربية، ولاينية عربية وعربية أسبانية تدل أوضح دلالة على ذلك العصر العربي الزاهر.

وفي اللغة الأسبانية الحاضرة كلمات عديدة تبدأ بأل التعريف العربية، وفي ذلك أبلغ شهادة على تأثير اللغة الأسبانية باللغة العربية. إذ أمدتها بألف الفردات التي لا غنى لها عنها في التمييز، ولم يقف نفوذ اللغة العربية عند هذا الحد بل تعداه إلى بقية اللغات السكونية والجرمانية الحية، ولهذا فإننا نجد حتى اليوم ألفاظاً عربية يليخه في بكل من اللغات^(٢) الإنجليزية والتالية القديمة والألمانية، والهولندية والإسكندنافية، والروسية والبولندية، واللغات الصقلية الأخرى.

وعما تدل عليه الإحصاءات الدقيقة^(٣) أن ثلاثة آلاف كلمة عربية قد دخلت اللغة البرتغالية، وأن ربع الأسبانية الحديثة مأخوذ من العربية، وأن تسعائة كلمة من اللغة العربية أيضاً قد أدخلها الفرنسيون في لغتهم^(٤) وتضم الانكليزية كذلك مثل هذا العدد من الألفاظ العربية.

ومن الغريب حقاً أن نجد أمماً غير عربية ما زالت حتى عصرنا الحاضر أمماً تتكلم اللغة العربية وتكتبها في جميع معاملاتها، أو أنها تكتب لغتها بالحرف العربي^(٥)، وما زالت العربية حتى يومنا هذا شائعة ومعكبة في معظم أطراف السينغال، والسودان الفرنسي، والنيجر، وليبيريا، والحبشة، وجيبوتي، وقازان، والقرم، وكرجستان، وطاغستان، وتركستان وسيام، والفيليبين، والمهند، وإيران، والصين، وجاوه، وبلاد المغرب، ومالطة، وكردوفان.

نقف عند هذا الحد قليلاً لنسأل سرفيه وأمثاله، أكان في استطاعة العرب أن يفرضوا لغتهم على جميع الشعوب التي حكموها، لو لم يكونوا أمة موهوبة جميل المزاي وروائع العبقريات؟ أم كان هؤلاء الأقوام يقبلون على تعلم العربية بمثل ما رأيت من الشوق والرغبة، لو لم تكن العربية لغة حضارة سامية ومدنية زاخرة؟... وإنما لنجد أمماً كثيرة، بربرية وحمجية، قد فرضت سلطانها على العالم قرونًا طويلة، ولما لم تكن ذات حضارة عالية بادت وتلاشى سلطانها دون أن تترك وراءها أثرًا يذكر.

ولم نذهب بعيداً في الاستدلال، وهذه الأمة العربية ذاتها قد تماقت عليها مختلف الحضارات، وخضعت لشئ السلطات إلا أنها مع ضعفها السياسي قد حافظت على مزاياها وتقاليدها ولغتها وحضارتها، ولئن استطاعت هذه الدول أن تفرض عليها سلطانها ونظمها السياسية، إلا أنها عجزت عجزاً تاماً عن تجردها من ثقافتها، لتفرض عليها ثقافتها الخاصة

(١) انطوان : قاموس الألفاظ الأسبانية والبرتغالية للغة العربية

(٢) لامنس - ملاحظات على الألفاظ الفرنسية للشعوب العربية

وكتاب Introduction to the Study of English Literature

(٣) تنوم العالم الإسلامي بالفرنسية - إسبينون -

(٧) غرائب الغرب ج ٢ ص ١٣٤ - لمحمد كرد علي

(٢) مجلة المعرفة - بحث لسلي مظهر، والاسلام والحضارة

العربية ج ١ لكرد علي.

العرب في مبراه العلم وطور الاستمرار :

وقيل أن نبين مواطن الابتكار والمبقرية في ثروة الإسلام العلمية يحسن بنا أن نرجع ولو قليلا إلى الوراء لنبحث العوامل الرئيسية التي عملت في تكوين الحضارة الإسلامية ، ولنرى بعد ذلك المراحل الأولية التي منحتها هذه الحضارة المربقة في سيرها وتقدمها ، قبل أن تصبح حضارة العالم بأجمعه بلامنازع فليس من شك في أن العرب وإن كانوا أرباب ملاحظة في سائر العلوم ، وأمة موهوبة أعلى درجات النبوغ والذكاء ، إلا أنهم شادوا حضارتهم — شأن بقية الأمم المتمدنة — على أنقاض حضارات سابقة قديمة ، وليس من شك أيضاً في أن الحضارة العربية لم تبلغ حد كمالها فجأة ، إذ أن ذلك أمر بعيد التصديق ، ولكنها بلنته تدريجياً ولكن بخطى سريعة متزنة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً

أفد كانت أوروبا في المعسر الذي بدت تظهر فيه طلائع النهضة العربية تغتبط في سبات الجهالة ، وتتمرغ في هاوية الانحلال ، وكانت المسيحية إذ ذاك قد بدأت بمطاردة الحرية الفكرية في أقطارها ، وأخذت تنشط في إحراق العلوم الوثنية وتمقب العلماء والفلاسفة . واستنصال شأفهم من كل بقعة . يخشى أن يكون لهم فيها صوت مسموع ، أو علم مرفوع ، جاسبة أيها بذلك تبيد من حقلها الأعشاب القريبة التي قد تحول في المستقبل دون نماء عقيدتها ، وإذ كان النور يشع إذ ذاك من ناحية الجزيرة العربية فقد أخذت هذه الفئات المتنازة الراقية تؤمها آحاداً وأرسالا حاملة إليها نتائج عبقريات الأمم اليونانية والرومانية الدارسة ، وكانت هذه الجماعات حينما زلت تعيش في جو من التسامح الفكري لم تمهد له فيما مضى مثيلاً .

أما في بلاد الشرق فقد أدت الحرب الموان التي دارت قبل الإسلام رحاها بين مملكتي الروم وفارس إلى ضعف كلتا المملكتين فقد غزا هرقل مملكة الفرس ، فتركها أطلالا خاوية ، ثم غزا الفرس مصر والشام فأثروا البلادهم من مملكة قيصر ، وقابلوا الضربة بضربة مثلها وأخذت المناوشات تترى بين المملكتين مدة طويلة ، وكان من نتيجتها أن ضعف قيصر وذل كسرى ؛ أما قيصر ،

فقد استنفدت هذه الحرب الضروس جميع اقتصاديات بلاده حتى لقد عجز عن أن يحفظ حدود مملكته ، وعن دفع الأتاوة للقبائل العربية التي كانت تقوم بحراسة أطراف هذه الإمبراطورية الواسعة ، وزاد في الطين بلة احتدام الجدل بين الملكيتين واليعاقبة والناسطرة حول طبيعتي المسيح ^(١) الالهية والإنسانية ؛ وتدخّل الإمبراطور إذ ذاك في هذه المجادلات ، الأمر الذي أدى إلى اضطهاد اليعاقبة والناسطرة ، وإلى اتساع شقة الخلاف . وكان هرقل إذ ذاك قد طعن في السن ، وأوهت قواه الشيخوخة ، فسقط لذلك العوبة بأيدي رهبان إيليا الذين مازالوا به حتى أوغروا صدره على يهود بيت المقدس ، بدعوى أنهم ساعدوا الفرس حين زحفهم على إمبراطوريته ، وضربهم إياها تلك الضربة القاضية ، التي صدعت فيها بنيان النظام والطمأنينة والأمن ، ققتل منهم لذلك خلقاً كثيراً ، وجلدوا وافرأ ، وعدداً لا يمد ؛ وهكذا فقد كان كل من النساطرة واليهود عوناً لكل خارج على قيصر أو طامع في ملكه وإذا استهواها قيس الحرية الذي كان يشع من ناحية الجزيرة فقد ساروا إليها يحملون معهم في سيرهم ما انتهى إليهم من نتائج المدينيات السابقة ، وما جادت به قرائنهم المتوقدة ؛ فنفسح النسطوربون في أرض الحجاز ، وقطن اليهود بلاد اليمن ؛ وكان أمراً طبيعياً أن تنتشر تماثيلها في سائر أقطار الجزيرة ، وأن تتأثر هذه بها .

ولم تكن الحالة في بلاد فارس بأحسن منها في بلاد الروم ، فقد كان الملك فيها — قبيل الإسلام — في قبضة طفل صغير لا يجاوز الخامسة عشرة من سنه ، ثم في قبضة امرأة مستضعفة ، وهي بوران بنت كسرى ؛ ولما بلغ النبي أمرها قال « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » . وهكذا فقد كان عرش فارس العوبة بأيدي أطفال صغار ، ونساء جاهلات ؛ ولم تكن حالة الزرادشتيين في فارس بالتي تدعمهم يخلدون إلى السكينة والاطمئنان ولذلك فقد أصبحت الجزيرة — قبيل الإسلام — مثابة صالحة للمضطهدين والمفلولين على أمرهم من أحرار فارس والروم .

خليل مجمة الطوال

(يتبع)

(١) تاريخ سعيد بن بطريق